*البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ شادية بيومي حامد

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*shadia@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت على إحياء علومها**

**الكلمات المفتاحية : بيئة الكُتَّاب ، الرسالة السماوية ، الأحكام**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت على إحياء علومها**

1. **عنوان المقال**

**ولو رحنا نحيل النظر عن البيئات المختلفة التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت من ثم على إحياء هذا العلم؛ للاحظنا أن هذه البيئات قد تعددت، فهناك بيئة المتكلمين الذين اهتموا بقضية الإعجاز البلاغي، وقيام الرسالة السماوية عليه، وصارت معرفة المسائل البلاغية أمرًا دينيًّا يقرر حجة الله في عقولهم، وهناك بيئة الأصوليين الذين بحثوا في أسلوب القرآن الكريم ومراميه في القول، وجعلوا ذلك سببًا لاستنباط الأحكام من الكتاب الحكيم، وهناك بيئة الكُتَّاب الذين قال عنهم الجاحظ: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلَّا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلَّا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلَّا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلَّا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الله الزيات".**

**وهناك بيئة الرواة، الذين كان لهم الفضل في وصل ماضي العرب بحاضرهم، وحفظوا لنا تراث اللغة والأدب، وصانوه بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، وهناك شعراء البديع الذين نظروا إلى محاسن الكلام، وأوجه الجمال يلتمسونها في الشعر والنثر؛ ليكثروا منها في أشعارهم، وهناك بيئة الفقهاء، والمفسرين، والمحدثين وغيرهم، وعلى الرغم من تعدد البيئات الثقافية إلَّا أنه يمكن إرجاع هذه البيئات جميعها إلى بيئتين كبيرتين، نمت فيهما البراعم الأولى للقواعد البلاغية، وكانتا رافدين عظيمين تكوَّن منهما ذلك النهر البلاغي الدائم الجريان.**

**أما لماذا نمت قواعد البلاغة في البيئة الأدبية؛ فلما سبق أن أشرنا إليه من أن العرب كانوا أهل فصاحة وبيان، قد كثر فيهم منذ جاهليتهم الشعراء الفحول، والخطباء المفلقون، وأرباب الحكم والأمثال، وكانت لهم في هؤلاء وأولئك تراث هائل، هو علامتهم البارزة، والسمة التي فضلوا بها على سائر الأمم، كما يقول ابن رشيق، وفي كل مجتمع يوجد فيه شاعر، أو كاتب، أو خطيب، يوجد ناقد يستحسن ما يسمعه من شعر وكتابة، وخطابة، أو يستقبحه، وهذا أمر بدهي؛ إذ أن النقد شيء في طبيعة الإنسان الذي يتفاعل مع ما حوله من الأشياء، وقد فتن العرب بشعرائهم منذ عصورهم المبكرة، وحين اكتملت للشعر صورته الفنية، وتذوقوه وتغنوا به، ومن الطبيعي أن ينظروا فيه تلك النظرة التي تلتئم مع حياتهم وبداوتهم، وبُعدهم عن الحضارة، فأعلنوا استحسانه لما استجاد، وأعلنوا استهجائاتهم لما استقبحوا في عباراتٍ موجزة.**

**هذه العبارات على الرغم من وجازتها، تمخضت عن الكثير من الملحوظات واللفتات التي اتُّخذت فيما بعدُ أصولًا في البلاغة العربية، ومن هذه الملحوظات، ما جاء أحكامًا واضحة الهدف محددة الفكرة، ويتابع النقد خطاه في عصر صدر الإسلام، فنجد أن هذه الملحوظات النقدية تزداد وتكثر وتعمق، غير أنه من الواضح الجلي أن القرآن وأسلوبه كان له أثر كبير على كثرة هذه الملحوظات النقدية وعمقها، فمن ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب > قال لابن عباس {: "أنشدني لأشعر شعرائكم، فقال له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: الزهير، قال: ولما كان كذلك، قال: كان لا يعاظل بين القول، ولا يتبع حوشية، ولا يمدح الرجل إلَّا بما هو فيه، فلم يزل ينشده حتى برق الصبح".**

**أما في عهد بني أمية، فقد اتسعت دائرة النقد، وكثر الكلام فيه؛ ذلك لأن الشعر كان قد ازدهر آنذاك، كما كثرت الموازنات بين الشعراء بعضهم البعض، وقد أثارت هذه الموازنات ما كان بين الشعراء من خصومات ومعارضات ونقائض، كالتي بين الثلاثة: جرير، والفرزدق، والأخطل، كما تعرضت هذه الموازنات لمزايا وعيوب، كل شاعر من نواحٍ مختلفة، من جهة اللفظ، والمعنى، والشعور، والطرق التي يتبعها كل منهم في عرض معناه، وبجانب اتساع النقد وتشعبه، هناك ظاهرة أخرى برزت في هذا العصر، ذلك أنه في أواخر القرن الأول الهجري، ظهرت طائفة من الموالي، أقبلوا على لغة العرب يفيدونها بالتعلم والدراسة بعد أن كانت في أصحابها طبعًا وسليقة، فبذل هؤلاء في تحصيل اللغة، وضبطها، ومعرفة شاردها وواردها، وأشعارها، وأدبها، وأخبارها، وأيامها، فقد بذلوا في ذلك جهدًا كبيرًا.**

**وقد عُرفت هذه الطائفة، بطائفة النحويين، واللغويين، وهؤلاء أبهرتهم الحياة الإسلامية الجديدة، وأسهموا بنصيب كبير في النقد الأدبي، فقد كانت لهم ملحوظات على الشعراء، وكان ضابطهم في كل ذلك ما عرفوه، وتعلموه من استعمالات العرب للألفاظ وإعرابها، ولم يقف نقد هؤلاء العلماء عند الصياغة والشكل، أو عند تحديد معاني الألفاظ؛ بل مضوا يفهمون الشعر، ويتذوقونه، ويدركون ما يمتاز به شاعر عن شاعر، ويوازنون بين بعض الشعراء وبعض، ويضعونهم في طبقات، مفضِّلين بعضهم على بعض، معترفين بأثر البيئة والحياة الاجتماعية في فصاحة الشاعر وقوته، وآخذين أنفسهم بتصحيح النصوص، والتحقق من نسبتها إلى قائليها.**

**فإذا ما انتقلنا إلى العصر العباسي، وجدنا أن العقلية العربية وفدت عليها ثقافات أخرى منقولة -بما سبق أن ذكرنا- من أمم عريقة في العلم، وأساليب التفكير، وكان لتلك الثقافات أثرها البعيد في إرهاف الملكات العربية، وتوجهها نحو التعمق في البحث عن كل أمر من أمورها، وقد كانت هناك الخصومة الشديدة التي دارت بين المحافظين على عمود الشعر العربي، والمجددين فيه كأبي نواس، كما كان هناك المنازعات الطاحنة حول تفضيل بعض الشعراء على بعض، وأيضًا كثرة الموازنات بين المتقدمين والمحدثين، ودارت الخصومات حول بعض الشعراء، تنتصر لهم طائفة فترفعهم، بينما تهبط بهم طائفة أخرى.**

**كل هذا وبعض الملاحظات التي أُثيرت من خلال هذه الانتصارات والمنازعات كانت في صميم الدرس البلاغي.**

**ولقد كان لهذا كله أعظم أثر على النقد الأدبي أيضًا، فاتسعت دائرته في أوساط العلماء باتساع دائرة الثقافة وتدوين العلوم المختلفة، وحركة الترجمة من اللغات الأجنبية، واتسع أيضًا ليضم إلى جانب نظره إلى الألوان الأدبية الأخرى، من كتابة، وخطابة، كما تنوعت مذاهبه، وأصبح حرًّا طليقًا، يتناول كل النواحي التي تتصل بالعمل الأدبي؛ فحينًا يوجه الناقد همَّه إلى المعنى، فيعرض له من ناحية صدقه أو كذبه، وصحته أو خطئه، وجدته أو تقليده، وغير ذلك من المسائل التي ترتبط بالمعنى، وحينًا أخرى يقف الناقد مع الأسلوب؛ ليبين قوته أو ضعفه، ووضوحه أو غموضه، وما فيه ما أسباب الحسن والكمال، أو القبح والاستهجان، وغير ذلك مما يعرض للأسلوب من صفات.**

**هكذا نجد أن الدرس البلاغي، كان له مثل ما كان من الدرس الأدبي أو النقد الأدبي في هذا العصر، فقد صار بخطًى واسعة إلى الأمام، بعد أن تناثرت في كتب الأدب والنقد من نحو: (طبقات الشعراء)، لابن سلام، المتوفى سنة 232، و(البيان والتبيين)، للجاحظ، المتوفى سنة 255، و(الشعر والشعراء)، لابن قتيبة، المتوفى سنة 276، و(الكامل)، للمبرد، المتوفى سنة 285، و(قواعد الشعر)، لثعلب، المتوفى سنة 291، و(البديع)، لابن المعتز، المتوفى سنة 296، و(عيار الشعر)، "لابن طباطبا العلوي" المتوفى سنة 322، و(الموازنة بين أبي تمام والبحتري)، للآمدي، المتوفى سنة 371، و(الوساطة بين المتنبي وخصومه)، للقاضي الجرجاني، المتوفى سنة 392 ، و(الصناعتين)، لأبي هلال العسكري، المتوفى سنة 395، وتناثرت بين سطور هذه المؤلفات جميعًا، كثير من المسائل والقواعد التي هي من صميم الدرس البلاغي، وأفادت هذا العلم، وهو في طور جمعه، وتميزه، واستقلاله على ما سنرى فيما بعد.**

**ولو شئنا الكلام عن بيئة الإعجاز القرآني؛ وهي البيئة الثانية التي نشأ فيها الدرس البلاغي؛ لقلنا إن العرب في جاهليتهم عرفوا من ألوان الكلام؛ الشعر، وسجع الكهان، والخطابة، والحكم، والأمثال، وكان لكل لون من هذه الألوان ميزاته الخاصة به. وقد جاءهم رسول من أنفسهم عزيز عليه ما عنتوا، حريص عليهم، بالمؤمنين رءوف رحيم، أرسله الله  إليهم وإلى الناس كافة بلغة العرب، وأنزل إليهم كتابًا بلغة العرب أيضًا، وعلى أساليب كلامهم، فألفاظه عربية، وأسلوبه عربي؛ أنزله ليكون معجزةً لنبيه على صدق رسالته من ناحية؛ ولهداية الناس من ناحية أخرى.**

**وعلى الرغم من أن القرآن جاء بلسان عربي مبين إلَّا أنه بهر العرب وأفقدهم الوعي، وكان مصدر دهشتهم أنهم وجدوا أن هذا الكلام لا يتفق مع أيِّ فنٍّ من الفنون الأدبية التي عرفوها، فلا هو بالشعر، ولا بسجع الكهان، ولا بالخطب، ولا بالحكم والأمثال، وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك.**

**وقد روي أن عتبة بن ربيعة قال حين سمع القرآن: "يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلَّا وقد قلته، وعلمته، وقرأته، ووالله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة".**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**